

## قراءة في القصيدة اليتيمة إبراهيم يحيى أبو ليلى



عندما تأملت قصيدة علي بن زريق البغدادي اليتيمة أو قمر في بغداد حقيقة توقفت عندها أتساءل هل فعلاً الحزن وفقدان الأمل يقتلان المرء والحق أنني مررت بشخص قد قتله الحزن وما كنت أظن أن الحزن يقتل المرء لولا أنني قد عايشته ذلك بنفسه ورأيت شخصاً قريباً مني قد مات من شدة الحزن نعم ذلك الشخص هي أختي أم ياسر تلك المرأة التي فقدت ثلاث من أبنائها في ريعان شبابهم الواحد تلو الآخر وهي تنظر إليهم وتثكلهم جميعاً ومع موت الثالث أنهارت تماماً ولم تمضي من الشهور إلا احد عشر حتى لحقت بأخزهم حزناً وفي الحقيقة هي كانت تحزن ولكن لم أراها يوماً متسخطة بل كانت تلهج دائماً بالحمد ولكن الحزن قد فطر قلبها رحمها الله رحمة واسعة وأبنائنا وأموات المسلمين هذه المقدمة كانت ضرورية للولوج إلى قصة ابن زريق البغدادي وقصيدته العينية الحزينة اليتيمة لنبحر رويداً رويداً إلى أعماق هذه القصة والقصيدة ودعوني انقل من بعض كتب التاريخ مع بعض تصرف (هو أبو الحسن علي بن زريق البغدادي (ت420هـ)، كانت له ابنة عم أحبها حباً عميقاً صادقاً ، ولكن أصابته الفاقة وضيق العيش، فأراد أن يغادر بغداد إلى الأندلس طلباً للغنى، وذلك بعدح أمرائها وعظمائها، ولكن صاحبته تشبث به، ودعته إلى البقاء حباً له، وخوفاً عليه من الأخطار، فلم ينصت لها، ونفذ ما عزم عليه.

وقصد الأمير أبا الخير عبد الرحمن الأندلسي في الأندلس، ومدحه بقصيدةٍ بليغةٍ جداً، فأعطاه عطاءً قليلاً، فقال ابن زريق- والحزن يحرقه-: "إنا لله وإنا إليه راجعون، سلكت القفار والبحار إلى هذا الرجل، فأعطاني هذا العطاء القليل؟".

ثم تذكّر ما اقترفه في حق بنت عمه من تركها، وما تحمّله من مشاقٍ ومتاعب، مع لزوم الفقر، وضيق ذات اليد، فاعتلّ غمّاً ومات.

وقال بعض من كتب عنه إنَّ عبد الرحمن الأندلسي أراد أن يختبره بهذا العطاء القليل ليعرف هل هو من المتعطفين أم الطامعين الجشعين، فلما تبينَّت له الأولى سأل عنه ليجزل له العطاء، ففتقدوه في الخان الذي نزل به، فوجدوه ميتاً، وعند رأسه رقعة مكتوب فيها هذه العينية.

فبكاه عبد الرحمن الأندلسي بكاءً حاراً.) انتهى النقل...

اقول غفر الله للأمير أبا الخير عبدالرحمن الأندلسي ما كان اغناه ان يختبر او يجرب علي ابن زريق لقد احب هذا الشخص ابنة عمه حباً خالط شغاف قلبه واراد لها العيش الرغيد ولكن كما يقال..

ما كل ما يتمنى المرء يدركه  
تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

يبدأ قصيدته بطلب من ابنة عمه أن لا تعذله ولا تتجاوز في لومه حد الاضرار به وهي تعتقد أن ذلك اللوم ينفعه فيقول في مطلع قصيدته العينية والتي تعتبر حقيقة من عيون الشعر العربي بلا مبالغة..

لَا تَعْذِلِيهِ فَإِنَّ الْعَذْلَ يُوَلِّغُهُ  
قَدْ قَلَّتْ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

\*\*\*\*\*

جَاوَزْتَ فِي لُومِهِ حَدًّا أَضْرِبُهُ  
مِنْ حَيْثُ قَدَرْتَ أَنْ اللُّومُ يَنْفَعُهُ

\*\*\*\*\*

فَاسْتَعْمَلِي الرِّفْقَ فِي تَأْيِيبِهِ بَدَلًا  
مَنْ عَذَلَهُ فَهُوَ مُضْنَى الْقَلْبِ مُوجَعُهُ

هنا هو يستعطف محبوبته ان تستعمل معه الرفق فهو مضنى القلب مُتَعَبَهُ وموجعه ثم يقول

قَدْ كَانَ مُضْطَّاعًا بِالْخَطْبِ يَحْوِلُهُ  
فَصُلِّغَتْ بِخُطُوبِ الدَّهْرِ أَضْلَعُهُ

\*\*\*\*\*

يَكْفِيهِ مِنْ لَوْعَةِ النَّشْتِيبِ أَنْ لَهُ  
مِنْ النَّوَى كُلِّ يَوْمٍ مَا يَرُوعُهُ

\*\*\*\*\*

ما آتٍ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا وَأَزْعَجُهُ  
رَأْيِي إِلَى سَفَرٍ بِالْعَزْمِ يَزْمَعُهُ

يقول لم يرجع من سفر في طلب الرزق حتى يزجه سفر آخر يتطلع اليه على يجد في هذه المرة مبتغاه فيرتاح ولكن هيهات فيقول...

كَأَنَّمَا هُوَ فِي جِلٍّ وَمُرْتَحِلٍ  
مُؤَكَّلٍ بِفَضَاءِ اللَّهِ يَذْرَعُهُ

بالهذا المسكين يقول لكثرة حله وترحاله كأنما هو موكل بذرع وقياس هذه الأرض الفضاء كأنه يقيسها ويذرعا طولاً وعرضاً ثم يستطرد قائلاً :

إِنَّ الزَّمَانَ أَرَاهُ فِي الرَّجِيلِ غَنِيٌّ  
وَلَوْ إِلَى السَّدِّ أَضْحَى وَهُوَ يُزْمَعُهُ

لو علم أن السفر إلى السند يجلب له الغنى لشد الرحال إلى تلك البلاد النائية ثم يقول...

تَأْبَى المَطَامِعُ إِلَّا أَنْ تُجَسِّمَهُ  
لِلرِّزْقِ كَدًّا وَكَمْ مِمَّنْ يُوَدِّعُهُ

\*\*\*\*\*

وَمَا مُجَاهِدُهُ الْإِنْسَانَ وَاصِلَةً  
رِزْقًا وَلَا دَعَاةَ الْإِنْسَانَ تَقْطَعُهُ

\*\*\*\*\*

قَدْ وَرَعَ اللَّهُ بَيْنَ الْخَلْقِ رِزْقَهُمْ  
لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ مِنْ خَلْقٍ يُضَيِّعُهُ

\*\*\*\*\*

لَكَيْتُمْ كُتِّمُوا جِرْصًا فَلَسْتُمْ تَرَى  
مُسْتَرْزِقًا وَسَبَى الْغَايَاتِ تُنْعَعُهُ

\*\*\*\*\*

وَالْجِرْصُ فِي الرِّزْقِ وَالْأَرْزَاقِ قَدْ قُسِمَتْ  
بِغِيٍّ إِلَّا إِنْ بَعِيَ الْمَرْءُ يَصْرَعُهُ

\*\*\*\*\*

وَالدَّهْرُ يُعْطِي الْفَتَى مِنْ حَيْثُ يَمْنَعُهُ  
إِرْتًا وَيَمْنَعُهُ مِنْ حَيْثُ يُطْمَعُهُ

هو في هذه الابيات وكأن الندم يعتصره أن الرزق سوف ياتيكم وكما يقال لو لم تعرف طريقاً إلى الرزق فالرزق يعرف الطريق اليك ومهما يجاهد الإنسان في طلب الرزق فلن ينال إلى ما قسم الله له ولكن طمع الإنسان وحرصه قد يكلفه ما لا يطيق وأن شدة الحرص على الرزق مع ما قسم الله للإنسان ربما يوصل الإنسان الى البغي وعدم الرضى مع أن الله قد وزع الأرزاق ولم يخلق الله خلقاً يضيعه أو يتركه هكذا سبحانه وتعالى فهو يرزق كل حي ويسوق اليه رزقه ولكن الانسان بطبعه عجول..

وهنا يتذكر وداع ابنة عمه وكيف كان الوداع بأبيات غاية في الروعة والتأثر هي أبيات تصويرية وكما يقول الدكتور عبدالعزيز سرحان ان هذه الأبيات تصلح لأن تجسد في فلم تصويري....

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَعْدَادٍ لِي قَمْرًا  
بِالْكَرْخِ مِنْ فُلْكِ الْأَرْزَارِ مَطْلَعُهُ

\*\*\*\*\*

وَدَّعَيْتُهُ وَبُودِي لَوْ يُودِّعُنِي  
صَفْوَةَ الْحَيَاةِ وَأَنْتِي لَا أُوَدِّعُهُ

\*\*\*\*\*

وكم تشفع في أن لا أفارقه

وللضرورة حالٌ لا تُسْفَعُه

\*\*\*\*\*

وَكَمْ تَشَبَّتْ بِي يَوْمَ الرَّحِيلِ صُحَيٌّ  
وَأَدْمَعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَدْمَعُهُ

يقول استودع الله في بغداد لي قمرا وصف ابنة عمه بالقمر لجمالها وهي تسكن الكرخ من اعمال بغداد وفلك الازرار ما فتح من القميص أو الثوب وكناية عن القلب الذي لم يتحمل فراق الإلف ثم يقول حين ودعته عند الرحيل تمنيت أن يودعني ما صغى من العيش وأني لا أقف موقف الوداع هذا لشدة الألم الذي عانيته حين وداعه وهي تقف كأنها القمر لجمالها ورونقها والمرأة يزيد لها الدموع جمالا وبالذات اذا كانت دموع استعطاف ان لا يغادرها من تحب يقول كم قد تشفعت وسأقت الي الشفعاء والشفيع هنا دموعها وتوسلها ان لا افارقها ولكن ابت ضرورة حال كسب الرزق إلا الرحيل ولم تنفع اية شفاة ثم يتطور الموقف ويزداد دراما إذ لم تنفع الدموع ولم تشفع هنا كان التشييت والرجاء والدموع بريك لا ترحل ولكن قضاء الله ليس منه مفر ولولا أن منيته نادته هناك في الأندلس لكان هذا الموقف كافيا وكفيل بأن يثنيه عن الرحيل ولكن كما قيل (إذا حل القضاء ضاق القضاء) وكان الرحيل في وقت الضحى ثم يسترسل فيقول لا أكذب الله ثوب الصبر منخرق عني بفرقتة لكنني أحاول جهدي أن اتحلى بالصبر وأحاول أن ارق ما انخرق منه ثم ينهال عليه الندم ويتكاثر حتى كاد ان يهدم كيانه ويعتصره الندم ولكن هيهات فقد سبق السيف العذل يقول

إِنِّي أَوْسَعُ عَذْرِي فِي جَنَائِيهِ  
بِالْبَيْنِ عَنْهُ وَجُرْمِي لَا يُوسِّعُهُ

\*\*\*\*\*

رُزْقِي مُلْكًا فَلَمْ أَحْسِنِ سِيَّاسَتَهُ  
وَكُلُّ مَنْ لَا يُسْوِسُ الْمُلْكَ يَخْلَعُهُ

\*\*\*\*\*

وَمَنْ عَدَا لِابْسَاءِ تَوْبِ النَّعِيمِ بِلَا  
شُكْرِ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزَعُهُ

اني اوسع عذري في جنائيه وما اقترفته من ذنب في حقه ولكن جرميرفي حقه كبير وعظيم بحيث لا ينفع معه عذر ثم يقول لقد رزقت ملكا ولكني لم احسن سياسة هذا الملك هو يصف ابنة عمه بأنها ملك قد منحه الله ولكن لم يستطع ان يحافظ عليه ويقول ومن عدا لابسا ثوب النعيم ولكن بلا شكر فحتما ان الله سينزع عنه هذا النعيم وهذه النعمة التي اولاه الله اياه....

والقصيدة لها تكملة ولكن اردت ان اقف عند هذه الابيات عند لحظة الوداع والقصيدة ليست قصيدة عشق بقدر ما فيها من العبر بقدر ما فيها من الوفاء بقدر ما فيها من الصبر بقدر ما فيها من ألم الفراق رحم الله علي بن زريق البغدادي واسكنه فسيح جناته وعوضه الجنة فقد ترك لنا إرثا وإن كان هذا الإرث قصيدة واحدة ولكن قصيدة لشدة جمالها وتأثر الناس بها فكم من الشعراء قد عارضها فهي بحق يتيمة ولكن اي يتم وقد وجدت من الآباء والمحبين ما يخرجها من اليتيم لذلك نقول هي قصيدة قمر في بغداد وكفى.

إبراهيم يحيى أبو ليلي